بحث محكم | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 06 فبراير 2017

الإسلاموفوبيا:
مقاربة جيو – سياسيّة

مصطفى بن تمسك
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الإسلاموفوبيا: مقاربة جيو – سياسيَّة[1]

[1] نشر في ملف بحثي بعنوان «الاسلام في الغرب»، إشراف بسّام الجمل، تنسيق أنس الطريقي.

الملخص

شهد عالمنا المعاصر تحوُّلات جيو-سياسيَّة كبرى في العقد الأخير من القرن العشرين، ليس أقلها نهاية التقاطب الإيديولوجي (شيوعيَّة/ رأسماليَّة)، وإحياء التقاطب الحضاري/الرمزي القديم (غرب/شرق) بمسمَّيات جديدة فرضها الغرب الغالب على الشرق المغلوب، ولعلَّ من أبرزها وأكثرها رواجاً اليوم ظاهرة «الإسلاموفوبيا» أو الرّهاب من الإسلام. وغير خافٍ عن الأنظار أنَّ الغرب قد اتخذ منها حيلة إيديولوجيَّة للسيطرة على ثروات الشرق، عبر مخطط يهدف الى الإمعان في تفتيت المفتَّت من هذه «الأمَّة» وإحياء الصراع الكامن بين الملل والنحل (سنَّة-شيعة). لهذا يهمُّنا - في هذا السياق- أن نبسط للنقاش الهواجس التالية:

- هل يمثل «الإسلام الجهادي» تهديداً فعليا للرأسماليَّة المتعولمة، أم هو لا يعدو أن يكون سوى إحدى مصنوعاتها وحيلها لتجديد سيطرة الغرب ما بعد-الكولونيالي على مستعمراته التقليديَّة؟

- هل أنَّ مخرجات هذه الأزمة هي تقديم «إسلام معتدل» بالشكل الذي يرغب فيه الغرب، أم تحميل الغرب مسؤوليَّة إنتاج وتعزيز بؤر التوتر الثقافي والجيو-سياسي على مستوى الكون بأسره؟

المقدّمة

يخطئ من يعتقد أنَّ ظاهرة الرّهاب من الإسلام المعروفة في الغرب المعاصر بالإسلاموفوبيا اقترنت باعتداء الحادي عشر من سبتمبر 2001، لأنَّها قديمة قدم الصراع المتأصّل بين أتباع الديانات الكبرى، وسببها الرئيس، الذي تناسلت منه بقية الأسباب، هو الإنكار اليهودي-المسيحي للإسلام ولنبوَّة محمَّد.

استمرَّ العداء للإسلام والمسلمين على مرّ التاريخ، فكان يتصاعد تارة ويخفت طوراً، لكنَّه كان دوماً بمثابة الإيديولوجيا التي تسوّغ صراع الغرب اليهودي-المسيحيّ مع الإسلام. بلغت هذه البربريَّة ذروتها في مناسبات تاريخيَّة نذكر أهمَّها: الحروب الصليبيَّة (489-690هـ/1096-1292م) وطرد المسلمين من غرناطة سنة1492، واستعمار المنطقة العربيَّة، وتقسيمها وفق مخطّط سايكس-بيكو سنة 1916، والاستيطان اليهودي في فلسطين على إثر وعد بلفور سنة 1917. وبعد نكبة الحربين العالميّتين، ونهاية الحرب الباردة، واستفحال الأزمات الاقتصاديَّة، يعود الغرب إلى ذريعة معاداته للإسلام، لوقف تدفّق المهاجرين المسلمين، ولإجهاض كلّ مشاريع الوحدة الاقتصاديَّة والجغرافيَّة، وذلك بالمزيد من تفتيت صفوفهم إلى دويلات وطوائف متناحرة على خلفيات دينيَّة داخليَّة. وتحقيقاً لهذا الهدف تستزرع القوى الغربيَّة حركات تدعي «الجهاديَّة» (القاعدة وداعش) باسم نمط استئصالي ودمويّ من الإسلام، يمعن في تأجيج نوعين من الإسلاموفوبيا: داخليَّة بين المسلمين أنفسهم، بعد أن أضحى المسلم «الآخر» هدفاً للتكفير والتفجير، ولذلك تتنامى اليوم في الداخل العربي حالة من التوجُّس والرَّهبة نتيجة الاستهداف الإرهابي لعموم الناس على خلفيَّة تكفيرهم وحشرهم في خانة «الأعداء»؛ أمَّا الإسلاموفوبيا داخل الفضاء الغربي فهي حالة سياسيَّة يُراد بها خدمة أجندات انتخابيَّة (كما سنأتي إلى بيانه لاحقاً)، وتثبيت توقعات صماويل هنتغتون بقرب نشوب «صدام حضاري» بين الغرب والشرق على خلفيات العداء العقائدي القديم، ومن ثمَّة التشريع للحروب «الوقائيَّة» على أرض العدوّ، وهو ما نراه قد حصل فعلاً في أفغانستان والعراق وسورية وليبيا.

اتخذ الغرب من الإسلاموفوبيا مطيَّة إيديولوجيَّة للسيطرة على «مدائن الشرق وأراضيه التي تفيض لبناً وعسلاً»، عبر مخطط يهدف إلى تفتيت وحدة الأمَّة الإسلاميَّة وخلق ملل ونحل تزعم كلٌّ منها أنَّها وحدها من يمثل ضمير الأمَّة، وأنَّها «الفرقة الناجية» وما عداها في النار.

ملخَّص البحث

أمام استمرار الصراع القديم، الذي كان دوماً يتّخذ من الأديان ذريعة لتورية الأطماع الاقتصاديَّة والاستيطانيَّة، سنطرح للمساءلة والاستقصاء الهواجس التالية:

- لماذا يصرُّ الغربيون على محاربة المسلمين من خلال دينهم؟ وما رهاناتهم في ذلك؟

- ما الذي يجعل المسلمين يقعون في كلّ مرَّة في جحيم الفتن الدمويَّة التي نصبها لهم أعداؤهم؟ لماذا لا يتّعظون من أخطاء الماضي وآلامه؟

- كيف يمكن أن ندرأ مشاعر الإسلاموفوبيا داخليّاً وخارجياً، ونؤسّس لحوار جديد بين الأديان والحضارات؟

1- الإسلاموفوبيا: سياقات المفهوم وتاريخه

ظهر المفهوم لأوَّل مرَّة سنة 1997 في تقرير لجنة «**المسلمين البريطانيين والإسلاموفوبيا**» المعنون: «**الإسلاموفوبيا تتحدانا جميعاً**» 1997 **Islamophobia: A Challenge For All Of Us** وقد وضع التقرير عدّة معرّفات لهذه الظاهرة:

اعتبار الإسلام عقيدة صماء وجامدة وغير قابلة للتغيير، ويترتب عنه أنَّ هذا الدين منغلق على نفسه ولا يمكنه أن يتفاعل مع المشتركات الكونيَّة، ما يجعل من الشعوب الإسلاميَّة شعوباً بربريَّة التفكير والمعاش، عدوانيَّة وشهوانيَّة، وبالتالي فهي متخلفة بالنظر إلى الشعوب الغربيَّة. وبهذا يكون الإسلام الحاضنة المثاليَّة للإرهاب الدولي و«صراع الحضارات». والمحصّلة هي تنامي العداء الغربي للمسلمين المهاجرين وذلك بعزلهم وإقصائهم من الفضاء العام وعدم الاعتراف بجهودهم في نماء المجتمع وتقدّمه، والأخطر من هذا أنَّ هذا العداء وهذا التمييز في العمل والحقوق والشأن السياسي، أضحى مقنّناً ومشروعاً ولا يُدان قانونياً أو حتى أخلاقيّاً[1].

أضحى استعمال المفهوم دارجاً لغوياً وسياسياً، منذ مؤتمر «**تحدي الإسلاموفوبيا**» الذي أشرفت عليه الأمم المتحدة سنة 2004. وقد جاء في هذا التقرير اعتراف دولي بالأسباب العميقة التي ولدت وأجَّجت مشاعر الرّهاب من الإسلام، وهي بالأساس أسباب سياسيَّة متعلّقة بالوضع الجيو-سياسي العربي الذي تسبب فيه الاستعمار الغربي للمنطقة العربيَّة واحتلال فلسطين، وهو ما فاقم العداء بين الشرق والغرب، وخاصَّة تنامي مشاعر الاضطهاد و«النكبنة» Victimisation لدى العرب-المسلمين، ومحاولاتهم استعادة حقوقهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم. لكنَّ الآلة الإعلاميَّة والسياسيَّة الغربيَّة، لا تفتأ في تصويرهم على أنَّهم «برابرة» وأعداء «الديمقراطيَّة» تحرّكهم مشاعر الضغينة تجاه الغرب، ولذلك فهم خطر على الأمن القومي الغربيّ يجب استئصاله[2].

1- http://www.runnymedetrust.org/uploads/publications/pdfs/islamophobia.pdf, 24 novembre 2007.

2- M. Abu Sway, "Islamophobia: Meaning, Manifestations, Causes".
http://www.passia.org/meetings/2006/Islamophobia.htm, 27décembre 07.

الرّهاب من الإسلام هو شكل من «العزل الحضاري»[3] القائم على تصنيف الشعوب وفق انتماءاتهم العقائديَّة. تختزل هذه الرؤية المسلمين في الانتماء العقائدي، ولا تميّز بين تصوُّرات الإسلام التي تختلف من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر ومن فرد إلى آخر، بل تحجز الكلّ داخل تصوُّر كلي ومطلق لإسلام موسوم بالتحجُّر وغير قابل للتطوُّر لأنَّه فوق التاريخ، بل قُلْ خارجه.

تنتمي مفردة الإسلاموفوبيا (الرّهاب من الإسلام) إلى سجلّ ثقافة الكراهية والميز العنصريّ والعداء للساميَّة، الذي كرَّسته الدراسات الاستشراقيَّة عن الإسلام والمسلمين عبر تاريخ الصراع الطويل بين الإسلام والتقليد اليهوديّ-المسيحي[4].

الكراهيَّة هي إحدى مشتقات الإكسينوفوبيا Xénophobie (كره الأجانب أو المخاوف المرضيَّة من الأجانب، أو الكراهيَّة العميقة للأجانب)، وقد اكتسب هذا المصطلح معاني إضافيَّة في أوروبا في الثلاثين عاماً الماضية، وأصبح المقصود به في فرنسا وألمانيا مثلاً المهاجرين الأجانب من المغرب والجزائر وتركيا ويوغوسلافيا، وعندما تشير لجان الاتحاد الأوروبي إلى هذه العبارة فإنَّهم يقصدون الأجانب داخل الدول الأوروبيَّة وليس الأجانب في دول العالم عموماً. أمَّا مفردة «إسلاموفوبيا» فإنَّها تتضمَّن المخاوف بنوعيها؛ مخاوف من المسلمين المهاجرين وعموم المسلمين أينما وجدوا في العالم، بحيث تُمدّد مشاعر الرهبة والعنف الرمزي إلى درجة التعميم الزائف، الذي يتعامى عن رؤية التنوُّع بين المسلمين أنفسهم، وبين مختلف التأويلات والمدارس الفقهيَّة التي رسمت (بغير وعي منها) تعدُّديَّة مثيرة داخل الإسلام، لا يمكن للغرب أن يتغاضى عنها. بيد أنَّ آلة الاستشراق الغربي لا تريد أن ترى هذا التنوُّع وهذه التعدُّديَّة في «إسلامات» المسلمين، فتحشرهم داخل وصفة عدائيَّة شاملة ومطلقة، «الإسلام» مطلقاً، ما يعني نمواً غير مسبوق لمنسوب العداء بات اليوم كونياً ومتساوقاً مع مخطّطات العولمة التوسُّعيَّة.

2- الإسلاموفوبيا: إحياء «حرب الآلهة» في زمن العولمة

هل تعتبر الحركات الإسلامويَّة «الجهاديَّة» من نقائض العولمة، أم هي إحدى أبرز إفرازاتها؟

بعد افتعال حادثة الحادي عشر من سبتمبر 2001 وابتكار نظريَّة الحرب «الاستباقيَّة» على الإرهاب الجهادي-الإسلاموي الذي تقوده القاعدة من الأراضي الأفغانيَّة، انخرط رهط من المفكّرين الغربيين في التبشير بهذا التحوُّل الجيو-استراتيجي والتنبيه إلى مخاطر التصادم الحضاري بين الغرب والشرق، حتى انحصر التناقض الكوني لدى بعضهم بين العولمة والحركات الدينيَّة-الجماعويَّة، وسرعان ما نُسيت

3- Amartya Sen, **Identité et Violence,** Traduit de l'anglais par Sylvie Kleiman-Lafon, Paris, Editions Odile Jacob, 2007, p.34

4- انظر مثلاً: إدوارد سعيد، **الاستشراق: المعرفة/ السلطة/الإنشاء**، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربيَّة، 2001، ط5

التناقضات البنيويَّة الخانقة للنظام الرأسمالي المتعولم، وكأنَّ مشاكل العالم لم تعد سياسيَّة واقتصاديَّة، بل رمزيَّة وثقافويَّة. يقول بنجامين بربار في هذا السياق: «تتحدَّد المفارقة الكونيَّة الراهنة بين الانتماء للسوق العالميَّة أو الولاء للذهنيَّة القبليَّة»[5]. وفي السياق نفسه، يصوغ كلٌّ من أندري تاغييف وآلان توران إشكاليَّة العصر ضمن أفق منطق الثنائيَّة الموصوفة: «إمَّا الانخراط في القبلنة الجماعويَّة المتنامية أو الفردانيَّة المتذرّرة؟»[6]. هل قطعنا كلَّ هذا الطريق حتى نعود القهقرى إلى عالم حيث لا خيار لنا فيه سوى بين أسواق كسموبولتيَّة أو خصوصيات قبَليَّة عنيفة؟»[7].

وبهذا التحويل لوجهة القضايا الكونيَّة، وعلى وقع التضخيم الإعلامي لدور الحركات الدينيَّة ذات التوجُّه الجهادي، انتشر الرّهاب الإسلاموي برعاية الأحزاب اليمينيَّة المحافظة، وانحرفت تبعاً لذلك محاور الصراع الحقيقي بين غرب إمبريالي متعطش لثروات الشرق، وشرق يتوق إلى التحرُّر من سلاطين الداخل والخارج، حتى أضحت محاور الصراع مجرَّد تناقضات رمزيَّة-ثقافويَّة بين غرب يدافع عن قيم «الحريَّة» منذ القرن الثامن عشر وشرق منكفئ على هويته منذ أربعة عشر قرناً.

إنَّ ما بتنا نشهده في الغرب لم يعد فقط حالة كلاسيكيَّة من الإسلاموفوبيا، بل هي ضرب من «الإسلاموبرانويا» Islamoparanoia[8]، ويفيد هذا التحول الانفعالي الانتقال من التخوُّف العادي من الآخر إلى الرّهاب المرضي (العُظامي) الذي يفترض الشعور بالتفوُّق الحضاري والحداثي على غير الأوروبيين، وهو ما عبَّرت عنه جلُّ فلسفات الغرب بتعبيرات شتَّى تراوحت من تمجيد «الإنسان الأرقى» الارستقراطي الأوروبي دون غيره (نظريَّة نيتشه)[9]، إلى وصف الحداثة الغربيَّة بكونها تجسيداً نهائياً للعقل الكلي (نظرية هيغل)[10] وانتهاء إلى إعلان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الذي يمثله التشكيل الغربي الراهن (نظرية فوكايما)[11].

تنتمي هذه الاتجاهات الفلسفيَّة إلى ما يسمّيه روجي غارودي «الأصوليَّة العلمويَّة» التي تتماهى مع الأصوليات العقائديَّة من حيث اعتقادها في تفوُّق الرجل الأبيض عرقياً وحضارياً وعلميَّاً، ومن حيث تبشيرها بنهاية التاريخ مع اكتمال حلقات الحداثة الغربيَّة الرأسماليَّة والعلمانيَّة. يقول غارودي: «إنَّ عقيدة التطوُّر الخطّي للبشريَّة، الذي يضع الحداثة الغربيَّة في نهايته المرتقبة، لم يؤدِ إلى إنكار وتحطيم كلِّ الحضارات

5- Benjamin Barber, Djihad versus Mc World, Desclée de Brouwer, 1996, p.26.

6- Pierre–André Taguieff, La république enlisée. Pluralisme, «communautarisme» et citoyenneté, Paris, Editions des Syrtres, janvier 2005, p.64.

7- Alain Touraine, Pourrons-nous vivre ensemble ? Fayard, 1997, p.17.

8- Raphael Liogier, Le mythe de l'islamisation: Essai sur une obsession collective, Paris, Seuil, 2012, p. 24.

9- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فليكس فارس، بيروت، دار القلم، (دون تاريخ) ص 38

10- Hegel, Leçons sur la philosophie de l'histoire, Paris, Vrin, p.15.

11- فوكايما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الإنماء القومي، بيروت 1993

الأخرى وحسب، بل أدَّى أيضاً إلى إفقار الحضارة الغربيَّة أيضاً، حين غلّبت المنزع الفردي على المنوال الجماعي، واختزلت أبعاد الإنسان في الوجود الوضعي. إنَّ هذا التصوُّر للعلمانيَّة المصابة بعدوى الوضعيَّة والحداثة المختلطة مع نفي التعالي والمجتمع قد أدَّى إلى هزيمة الغرب أخلاقيَّاً»[12].

3- الإسلاموفوبيا الانتخابيَّة: «الاستثمار» في المقدَّسات الدينيَّة

نجحت الآلة الغربيَّة الدعائيَّة والإعلاميَّة الضخمة في الترويج لصورة نمطيَّة عن الإسلام[13]، رسَّختها التصوُّرات الاستشراقيَّة العنصريَّة، فجعلت من المسلم (بإطلاق) حيواناً دموياً وجنسياً وإرهابياً، يحتقر المرأة ويعشق السلطة والقتل وقطع الرؤوس...، وهو ما تفتأ وسائل الإعلام الغربيَّة في الترويج له منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001[14].

وهاهي ذي الآلة الحديثة نفسها بترسانتها الإعلاميَّة الضخمة تعيد تحريك منسوب الحقد العميق القابع في البنية النفسيَّة والثقافيَّة للغرب من خلال حملة الصور الكاريكاتوريَّة المسيئة لمحمَّد التي شهدتها الدانمارك وفرنسا والنرويج وألمانيا منذ عام 2006 إلى حادثة «شارلي هيبدو» الدمويَّة 2015[15]. ويهمُّنا هنا أن نتساءل: لمصلحة من تجري هذه الأجندات الإسلاموفوبيَّة؟ ومن يغذيها ويستفيد منها؟

أ- تقوية نفوذ المتطرّفين

من المفارقات العجيبة أنَّ الاعتداءات على الرموز الإسلاميَّة، دون غيرها من الرموز الدينيَّة اليهوديَّة أو المسيحيَّة أو البوذيَّة مثلاً، تثير مشاعر المسلمين وتحرّك عواطفهم، فيهبُّون بكلّ عفوية إلى الشوارع للتعبير عن سخطهم، ويكتفون بحرق أعلام إسرائيل وأمريكا، وفي أسوء الحالات يتهَّجمون على سفارة أمريكيَّة فيحرقونها (وهو ما وقع في تونس يوم 14 سبتمبر 2012 بمناسبة الاحتجاج على الفيلم الأمريكي «**براءة المسلمين**» **Innocence of Muslims**) أو يقتلون سفيرها وموظفيها (وهو ما حدث في ليبيا سنة 2012 للسبب نفسه). وتتواتر التنديدات من كلّ صوب وحدب، حتى ليختلط عليك الأمر فلا يمكنك أن تميز بين الصديق والعدو. ولكن سرعان ما يخمد هذا الحراك، بعد أن استفاد منه مهندسو الفتن الدينيَّة والطائفيَّة

12- روجيه غارودي، الأصوليات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها، تعريب، د. خليل أحمد خليل، باريس، 2000، ص 23

13- هانس كوكلر، تشنُّج العلاقة بين الغرب والمسلمين: الأسباب والحلول، ترجمة حميد لشهب، بيروت، دار جداول، 2013، ص ص 143- 144

14- "بعد مضي سنة على أحداث 11 سبتمبر 2001 بثت محطات التلفزة عبر البلاد (مأثرة) إيمرسون الرئيسيَّة التي جاءت على شكل فيلم وثائقي حمل عنوان: "الجهاد في أمريكا: تحقيق عن نشاطات المتطرفين الإسلاميين في الولايات المتحدة" (...) نشر هذا الفيلم ضباباً من الرعب في أنحاء البلاد، (...)، كما ولّد انطباعاً بأنَّ الأصوليين المسلمين خطرون غير عقلانيين، تسللوا إلى الريف الأمريكي، حيث أنشؤوا شبكة شريرة تهدف إلى تدمير الولايات المتحدة". انظر:

بول فندلي، لا سكوت بعد اليوم: مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في أمريكا، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع، والنشر، ط5، 2010 ص 90

15- الرسوم الكاريكاتوريَّة المسيئة للنبي محمد هي رسوم نشرتها الصحيفة الدانمركيَّة يولاندس بوستن في 30 سبتمبر 2005. ثمَّ تخصَّصت صحيفة شارلي هيبدو الفرنسيَّة منذ 2011إلى 2015 في نشر مثل هذه الصور في إطار أجندات إسلاموفوبيَّة ممنهجة، انتهت بالهجوم الدموي الانتقامي على مقر الصحيفة بباريس يوم 7 جانفي 2015 وأسفر عن مقتل 12 شخصاً.

من الداخل والخارج، والحركات الدينيَّة المتشددة، التي تتغذى من حالات الغضب الشعبي «المؤقتة» على الإساءة للرموز الدينيَّة. ولنُقدم عينات عمليَّة عن كيفية استفادة الحركات الدينيَّة المتطرفة من فيلم «**براءة المسلمين**»: في ليبيا، استثمرت المجموعات الدينيَّة الموالية للقاعدة في منطقة المغرب العربي الغضب الشعبي على هذا الفيلم، لتنفيذ هجوم دموي على السفارة الأمريكيَّة ببنغازي يوم 11 سبتمبر 2012 انتهى إلى قتل السفير وأربعة من الموظفين. حمل هذا الهجوم إلى الداخل الليبي وخارجه رسالة مفادها أنَّ الحركات الدينيَّة المتشدّدة هي التي باتت القوة الضاربة في ليبيا بعد سقوط نظام معمر القذافي، وعليه فالإسلاميون المعتدلون الذين أتى بهم «الربيع العربي» في كلٍّ مصر وتونس وليبيا ليسوا قادرين على إدارة مرحلة «التوحش».

وفي قطاع غزة، استثمرت حركة حماس هذا الفيلم وما أثاره من سخط عفوي في الشارع العربي، لتجميل صورتها بعد أن تلكَّأت في قطع علاقاتها مع نظام الأسد في سوريا...، قادت حماس حركات التنديد بالفيلم المذكور في قطاع غزة في مسعى لإبراز نفسها كأحد المدافعين الراديكاليين عن الإسلام، وكأبرز خصوم الولايات المتحدة وإسرائيل. وفي تونس قاد المتطرفون الدينيون أو ما يُعرف «بتنظيم أنصار الشريعة» بزعامة أبو عياض «غزوة السفارة» الأمريكيَّة يوم 14 سبتمبر 2012 احتجاجاً على الفيلم المذكور، فأحرقوا مدرسة أمريكيَّة وخرَّبوا جزءاً من السفارة بشكل سلس تفوح منه رائحة التواطؤ بين هؤلاء وبين من أرادوا لهذا الهجوم أن يبلغ مداه الأقصى، من أجل تحقيق أجندات تخريب مسارات «الربيع العربي» التي انطلقت شرارتها من تونس تحديداً.

استفاد المتطرّفون من هذا الحدث للظهور بمظهر الغيور والمحامي الأكبر عن الرموز الإسلاميَّة، وخاصَّة لإظهار قوتهم في الفضاء العمومي وترهيب أعدائهم من العلمانيين، وإحراج حلفائهم المعتدلين من الإسلاميين الذين انخرطوا في جوقة التحوُّل الديمقراطي.

لا تخدم الصور المسيئة للرسول وكذلك الأفلام مصلحة الحركات الدينيَّة المتطرفة في الداخل العربي فحسب، بل تستثمر أيضاً ورقة ضغط سياسيَّة ضدَّ الجاليات المسلمة في الغرب.

ولنلاحظ أنَّ إثارة الفوبيا (الرّهاب) من الإسلام والمسلمين ترتبط في الغالب بالسياقات الانتخابيَّة الغربيَّة، ويستثمرها بالدرجة الأولى اليمين المتطرف، الذي يقتنص هذه المناسبة ليُحمّل الجالية المسلمة مسؤوليَّة تنامي البطالة وانتشار الجريمة والإرهاب والهجرة السريَّة (ارتكزت حملة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب على وعوده بطرد المسلمين من الأراضي الأمريكيَّة، لأنَّهم مصدر الجريمة والبطالة والإرهاب المنتشر في الولايات المتحدة).

أمام هذا الخطر المتزايد، وبالتوازي مع الأزمة الاقتصاديَّة الخانقة التي يتخبط فيها النظام الرأسمالي العالمي منذ 2008 فضلاً عن الأزمات القيميَّة البنيويَّة التي باتت تهدّد المجتمعات بالتفتت والتلاشي، تتحرَّك مراكز النفوذ الإعلاميَّة والماليَّة لإنقاذ الوضع المتردي، وذلك عبر اعتماد آليتين:

أولاً: توجيه الرأي العام الغربي الداخلي إلى صراعات وهميَّة مع الجاليات المهاجرة من أصول مسلمة دون غيرها، وتحميلها مسؤولية ارتفاع معدلات البطالة والجريمة (حالة فرنسا مع اليمين المتطرف نموذجاً).

ثانياً: إيهام الناخب الغربي بأنَّ المفتاح السحري لحلِّ مشكلاته هو طرد المسلمين من بلاد الغرب، وبموجب هذا الإجراء ستنتهي مشكلة بطالة «أصحاب الأرض» حين يرحل عنها المسلمون «الدخلاء»[16].

والغريب أنَّ هذه الأوهام السخيفة والطفوليَّة تجد لها آذاناً صاغية لدى قسم واسع من السكان، وتنجح إلى حدٍّ بعيد في تورية الفساد البنيوي للمنظومة الرأسماليَّة وتهافتها، وتزجُّ بمجتمعاتها في فوبيا عقائديَّة وعرقيَّة وثقافيَّة خطيرة تجاه الأمَّة العربيَّة-الإسلاميَّة بالذات، الرازحة بدورها تحت نير الاضطهاد الإمبريالي العالمي بكلِّ ألوانه.

ب- الإسلاموفوبيا المتعولمة: أو ميلاد مفهوم «الإرهاب الإسلامي»

إذا كانت الإسلاموفوبيا الانتخابيَّة شأناً غربياً داخلياً وعداء عقائدياً-سياسياً موجهاً رأساً إلى الجاليات المسلمة في أوروبا وأمريكا، فإنَّ الإسلاموفوبيا المتعولمة تتجه بدورها رأساً إلى الهدف نفسه، ولكنَّها تمتدُّ الى مساحة الكون الواسعة. وحتى يكتسب تحليلنا المتانة التاريخيَّة والسياقيَّة اللازمة، يتعين أن نشير الى أنَّ ما نطلق عليه: «الإسلاموفوبيا المتعولمة» على النحو الذي تقوده الولايات المتحدة وحلفاؤها اليوم، يتنزل تاريخياً بعد نهاية الحرب الباردة وزوال الخطر «الأحمر» على النظام الرأسمالي العالمي، ومن الطبيعي أن تطمح إلى وضع يدها الطولى على كلّ منابع الثروة في العالم وإطلاق شركاتها الأخطبوطيَّة في كلّ الاتجاهات.

بيد أنَّها تدرك أنَّ الشعوب ستقاوم جشعها وستردها على أعقابها خائبة، وهو ما اختبرته أمريكا فعلاً بجيوشها الجرَّارة في حرب الفيتنام، وما تكبدته من هزيمة نكراء لا يمكن أن تمحى من الذاكرة الجماعيَّة الأمريكيَّة. لذلك كان عليها أن تتريث كثيراً وتبتكر سيناريوهات وذرائع «شرعيَّة» للتدخُّل عسكرياً في البلدان العربيَّة والإسلاميَّة الزاخرة بثروات الطاقة. فكيف أعدَّت الولايات المتحدة وحلفاؤها سيناريو التدخُّل في الشؤون العربيَّة؟

16- "يقول إدوارد سعيد في هذا الصدد: ما يهم خبراء مثل جوديث ميلر وصامويل هنتغتون ومارتن كرايمر وبرنار لويس ودانيال ياييس وستيفين إيمرسون وباري روبين، إضافة إلى مجموعة كاملة من الأكاديميين الإسرائيليين، هو التأكد من إبقاء خطر الإسلام نصب أعيننا (...) بما يدعم الأطروحة القائلة: إنَّ وراء كلّ انفجار مؤامرة عالميَّة" أورده بول فندلي، **لا سكوت بعد اليوم: مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في أمريكا**، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع، والنشر، ط5، 2010 ص 88

منذ نهاية الحرب الباردة طفقت أمريكا تبحث عن أعداء جدد، حتى تجد مسوّغاً «شرعيَّاً» لتدخلها في شؤون الدول. لذلك كان عليها افتعال حادثة غير مسبوقة في التاريخ المعاصر، واتهام من تريده أن يتحمَّل وزرها حتى تجد ذريعة للتدخُّل العسكري الردعي والوقائي في السيادات الوطنيَّة العربيَّة. وبالفعل كان حدث الحادي عشر من سبتمبر 2001 مذهلاً بكلّ المقاييس، إذ أعاد إلى المشهد الكوني صورة الحروب الصليبيَّة الدمويَّة. يقول تشومسكي: «ولعله من الخداع أن نسارع في البحث الدؤوب عن أعداء جدد منذ تراجع قوَّة السوفييت في الثمانينات، وقد وجدنا ما نبحث عنه في الإرهاب الدولي والتجارة الدوليَّة للمخدرات والأصوليَّة الإسلاميَّة وعدم الاستقرار في العالم الثالث والفساد بشكل عام»[17].

وهكذا «بانتصاره على الشيوعيَّة بدأ النظام الغربي لاقتصاديات السوق الحرَّة والديمقراطيَّة الليبراليَّة التعدديَّة، وكأنَّهما في ظلّ تهديد منافس جديد، لأنَّه مع موت الشيوعيَّة بات الإسلام البديل العالمي، وقد ازداد طاقة ضمن حركة شعبيَّة تلت حرب الخليج»[18]. «هل يمثل التشدُّد الإسلامي «شيوعيَّة جديدة»؟ وهل الحرب عليه تعادل حرباً عالميَّة ضدَّ الاتحاد السوفيتي؟ وما هو مدى جديَّة تهديد «الإرهاب الإسلامي»؟[19]

تعيدنا السياسة الأرثوذوكسيَّة الأمريكيَّة إلى ما يسمّيه ماكس فيبر بـ«حرب الآلهة»، أي حرب الأديان والإيديولوجيات، في الوقت الذي يدّعي فيه مفكّرو الليبراليَّة الجديدة بأنَّ عصر الإيديولوجيات قد ولى ومضى بعد زوال الإيديولوجيا الماركسيَّة. وكأنّ الإيديولوجيا الليبراليَّة الجديدة هي الأقدر على الاستمرار وتجاوز ذاتها، ومن ثمَّة الارتقاء إلى مقام المنظومة المعياريَّة المتعالية على صراع الإيديولوجيات.

في هذا السياق نفسه وفي «نهاية التاريخ» (فوكوياما) يضمحل الصراع الإيديولوجي، أو قُلْ لن يكون هناك خصم إيديولوجي في حجم الليبراليَّة المتجدّدة على الدوام، لذلك من الأجدر الحديث اليوم عن «صراع الحضارات» حتى يسوّغ الغرب الأطلسي مخططات وضع اليد على مصادر الطاقة.

نجحت الآلة الإعلاميَّة الجهنَّميَّة في نسج القران المضمر من وراء هذه العملية: ربط الإسلام مطلقاً بالإرهاب الدولي، ومن ثمَّة المضي إلى ردعه واستباقه أين ما كان وحيثما كان ودون تمييز. ولكن قبل ذلك كانت أمريكا الراعي الرسمي لكلّ حركات الإسلام السياسي في العالم بدءاً بحركة الإخوان المسلمين في مصر، حيث دعمتهم في حربها ضدَّ عبد الناصر، وفي أفغانستان أوجدت أمريكا حركة طالبان

17- تشومسكي نعوم، **النظام العالمي القديم والجديد**، ترجمة: د. عاطف معتمد عبد الحميد، شركة نهضة مصر، 2007، ص 9

18- راي تكيه ونيكولاس غفوسديف، **نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره**، ترجمة حسان بستاني، بيروت، دار الساقي، 2005، ص 170

«بعدما وضع الإسلاميون الراديكاليون نصب أعينهم مشروع إعادة بناء الأمَّة، لا بدَّ من أن يتواجهوا مع القوة المهيمنة الوحيدة وهي الولايات المتحدة. وهم يرون النزاع صراعاً بين حضارتين، الإسلام والغرب الذي نعبر عنه عسكرياً وسياسياً بالإمبراطوريَّة الأمريكيَّة». انظر: أوليفيه روا، **عولمة الإسلام**، ترجمة لارا معلوف، بيروت، دار الساقي، 2003، ص 195

19- روبرت دريفوس، **لعبة الشيطان: دور الولايات المتحدة في نشأة التطرُّف الديني**، ترجمة، أشرف رفيق، مركز دراسات الإسلام والغرب، 2010، ص 336

لمقاومة الغزو السوفيتي، كما دعمت آيات الله في إيران ضدَّ الحركة القوميَّة الإيرانيَّة التي كان يتزعمها آنذاك محمد مصدق...إلخ[20].

وبالمحصّلة وجدت أمريكا وبريطانيا في الإسلام السياسي الأداة المثلى لمقاومة المد الشيوعي والقوميَّة العربيَّة. وبعد أن انتهى الخطر الشيوعي والقومي على المصالح الأمريكيَّة والإسرائيليَّة في المنطقة، تقرَّر الانتهاء من حركات الإسلام السياسي وتصفيتها بعد أن انتهت مهامها، ولكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، وانقلب الطرفان من حليفين إلى عدوين، وبدأت حرب الاتهامات. وهكذا اختلق الأمريكان وحلفاؤهم في حربهم الإعلاميَّة على الحركات المذكورة عبارة: «الإرهاب الإسلامي»، وأسَّسوا جماعات من المرتزقة تدَّعي باطلاً انتماءها للإسلام «السلفي-الجهادي»، وفوَّضوا لها مهام تأجيج الفتن الدينيَّة والطائفيَّة بين المسلمين، وتدمير الأوطان وهدر الدماء (داعش نموذجاً).

كلّ هذه الفظاعات كانت وما تزال تجري تحت أنظار عدسات الفضائيات الغربيَّة الكبرى، وكبار مخرجي الأفلام الهوليوديَّة، وتروّج إعلامياً على مدار الساعة، حتى يترسَّخ في ذهن المشاهد وعقله الباطني القران الخطير بين الإسلام بإطلاق والإرهاب بإطلاق.

ت- إسلاموفوبيا الفتن الدينيَّة: «فرّقْ تَسُدْ»

في سياق عولمة إمبراطوريَّة توسعيَّة بلا حدود، استخدمت الإسلاموفوبيا كأداة للنزاع الطائفي والديني وكنزعة احترابيَّة ترمي إلى التخطيط مجدداً «لشرق أوسط جديد»، أو قُلْ «سايكس-بيكو» جديد تشكّله على مقاساتها ووفق مصالحها.

تقتضي الخطة الاستراتيجيَّة أوَّلاً: أن يقتنع العالم بأنَّ عصرنا الحالي هو عصر «الصدام» بين الهويَّات والحضارات والثقافات، وأنَّه لا مناص من تواجه الحضارة الغربيَّة مع الحضارة الشرقيَّة الناهضة. ثانياً: تكريس الصور النمطيَّة «المخيفة» عن الإسلام، وتقديمه كخطر داهم يهدّد قيم المجتمعات العلمانيَّة. ثالثاً: افتعال صدامات «وهميَّة» بين «الإنسانيَّة الغربيَّة المتسامحة» و«الإرهاب الإسلامي المتشدّد» الذي تمثله الحركات «الجهاديَّة» المرتزقة. رابعاً: التحرُّك العسكري «الوقائي» ضدَّ هذه التنظيمات في أشكال استعماريَّة جديدة للبلاد العربيَّة. خامساً، والأهم: يدرك قادة الغرب جيداً أنَّ «الحصون المنيعة لا تفتك إلا من

20- "مع مطلع الخمسينات شهدت منطقة الشرق الأوسط تطوراً جوهرياً تمثل في ظهور زعيمين قوميين في كل من مصر وإيران (..) أطاح **الضباط الأحرار** بالملك الفاسد في مصر (..) وفي إيران نجح **محمد مصدق** الذي يميل إلى الاشتراكيَّة في انتخابات ديمقراطيَّة حرة وتحدى الشاه ملك إيران واضطره إلى الهروب من البلاد(..)وفي كلتا الحالتين تحركت المخابرات الأمريكيَّة والبريطانيَّة وأطاحتا بمصدق وحاولتا الشيء نفسه مع عبد الناصر لكنهما فشلتا. واستغلت المخابرات الأمريكيَّة والبريطانيَّة في الحالتين اليمين الإسلامي كمخلب قط لتحقيق أهدافهما. في مصر استغلت الإخوان المسلمين، وفي إيران عبؤوا مجموعة آيات الله التي تشمل الأب الروحي لآية الله الخميني". انظر: روبرت دريفوس، **لعبة الشيطان: دور الولايات المتحدة في نشأة التطرُّف الديني**، م.م، ص 110

الداخل»، لذلك لا بُدَّ من شقّ صفوف الشعوب العربيَّة، وتجييش الفتن الدينيَّة والطائفيَّة والعرقيَّة والجهويَّة، حتى تبلغ الخطة المذكورة مداها ومنتهاها.

تقتضي هذه المرحلة افتعال مواجهات دينيَّة وطائفيَّة بين ألوان إسلاميَّة متعايشة على مرّ التاريخ؛ حالة السُّنَّة والشيعة مثلاً في العراق وسورية ولبنان، وتقوية جانب على آخر بالتحريض والتمويل والإغراء والإرهاب.

وبالفعل تمكَّنت العولمة الاحترابيَّة من إرساء ظاهرة الإسلاموفوبيا الداخليَّة بين عموم المسلمين المعتدلين وبعض الحركات السلفيَّة «الجهاديَّة» التي نصَّبت نفسها وصيَّة على الإسلام والمسلمين. تتجلى الفوبيا التي يستشعرها المسلمون المعتدلون في الانقسام الذي بات واضحاً بين عموم الشعوب المسلمة والحركات السلفيَّة «الجهاديَّة» المتطرفة، وما يترتب عنه من فتاوى تكفيريَّة سرعان ما تترجم في عمليات انتقاميَّة جماعيَّة شنيعة (سيارات مفخَّخة في أحياء وأسواق شعبيَّة - انتحاريُّون بأحزمة ناسفة في مساجد يؤمُّها مسلمون عاديون.... إلخ).

ما يستخلص في نهاية هذا التحليل لظاهرة الإسلام «الجهادي» هو التضخيم الإعلامي الذي انساق وراءه بعض المفكرين الاستراتيجيين للمخاطر التي قد تسببها بعض الخلايا النائمة في مغاور جبال طورا بورا الأفغانيَّة الشهيرة. ولا شكَّ أنَّ تضخيم مخاطر حفنة من «المجاهدين» الأفغان، صنيعة المخابرات الأمريكيَّة والروسيَّة، يذكّرنا بالمخاطر الوهميَّة والمضللة ذاتها، التي روَّجتها الإدارة الأمريكيَّة في عهد المحافظين، والزاعمة بامتلاك العراق للسلاح النووي في عهد صدَّام حسين. وقد كانت هذه الذريعة الكبرى مرتكزاً لاحتلال هذا البلد، ثم تبيَّن لاحقاً بطلان هذا الادعاء، لكن بعد أن دُمّر البلد كلّه.

لا يمثل الإسلام «الجهادي» والسياسي نقيضاً للعولمة في كلّ الحالات، بل قد يكون رديفاً لها في أغلب الأحيان. يقول سمير أمين: «الإسلام السياسي يقوم في بعض الحالات بوظائف رجعيَّة تخدم رأس المال العابر للقوميات»[21]، بل إنَّنا نعاين محاولات تهدف إلى تكييف الإسلام المتطرّف مع روح العولمة والتخلي عن مطلب تطبيق الشريعة ومطلب «الجهاد المقدَّس»، لأنَّ الجهاد الحقيقي هو جهاد النفس. يقول باتريك هايني: «لم يعد هاجس الوعاظ الدينيين المبثوثين على الفضائيات الدينيَّة الجهاد من أجل تطبيق الشريعة، بقدر تحقيق التوافق مع قيم الحداثة الغربيَّة»[22]. وحسب بتريك هايني وأولفي روا، يشهد الإسلام في عصر العولمة أو «الإسلام المتعولم»[23] تحوُّلات جذريَّة على مستوى الشكل والمضمون، يمكن القول - شكلاً- إنَّ الفضائيات الوعظيَّة عوَّضت اليوم المؤسسات الدعويَّة التقليديَّة (المساجد، الزوايا، المدارس القرآنيَّة). يدعو إسلام

21- أمين، سمير، **الرأسماليَّة المتهالكة**، ترجمة: د. سناء شرف الدين ود. سناء أبو شقرا، بيروت، دار الفارابي، 2003، ص 181

22- Patrick Haenni, L'islam de marché: l'autre révolution conservatrice, Paris, Seuil, 2005, p.8.

23- Olivier Roy, L'Islam mondialisé.., Paris, Seuil, 2002.

العولمة عبر الفضائيات إلى تأسيس تديُّن فردي/ليبرالي عبر التخلي عن مؤسسة الخليفة والمرشد الأعلى. «أضحت غاية التديُّن متطابقة مع روح العصر المشبعة بالنفعانيَّة. يقطع هذا النموذج مع صورة المتديّن القدَري والمتقشف، مؤسساً في المقابل لتيولوجيا معاصرة تحتفل بالرفاهة وبحب الحياة، وتستنكف العزلة والخصاصة المبرَّرة ماورائياً، وتقرن ـ على غرار النموذج الطهري الأمريكي- العمل والربح بالعبادة.[24]

على مستوى المضمون، يؤسّس «الإسلام المتعولم» نموذجاً لمسلم جديد فخور متفرّد، لا يعنيه الشأن السياسي بقدر ما يشغله المردود الاقتصادي»[25]. أصبح الرهان الجديد هو تحقيق السعادة الفرديَّة وامتلاك القدرة الاقتصاديَّة القادرة على مغالبة الغربيين في فضاءات السوق العالميَّة. يقول هايني: «أصبحت قصة النجاح الفردي للمسلم الجديد مبعثاً للافتخار. في هذا السياق ظهر نموذج «التقي الفائز» Winner pieux ناجعاً اقتصادياً، غير ملتزم سياسياً، شغوفاً بتحصيل قيم الثراء والاكتمال التي لا تتعارض مع مخياله الديني. يؤسّس هذا التوجُّه ثقافة مقاومة داخل الإسلام السنّي حيث يفرض مقاولو الدين الجدد على أتباع الإسلام التقليدي والقدري نموذجاً تدينيًّاً قوامه فكرة «صداقة السوق» «Market-Friendly» ذات التوجه البرجوازي، الكسموبوليتي الساعية إلى «رأسملة» الأمَّة الإسلاميَّة حتى تكون قادرة على منافسة الأمم الأخرى[26].

نفذ الإسلام «الناعم» إلى الكونيَّة، وتحرَّر شيئاً فشيئاً من الخصوصيَّة والإقليميَّة والنرجسيَّة المغلقة، عبر انخراطه في اقتصاد السوق وتحريضه على الاستهلاك كشكل من أشكال تحقيق الذات. استثمرت الماركات العالميَّة الرموز الإسلاميَّة على غرار وضع علامة «حلال» على المنتجات التجاريَّة المحتوية على لحم الخنزير مثلاً، وكذلك صور مكَّة أو المحجبات أو العائلة الخليجيَّة حيث يتوافق المظهر التقليدي للمرأة والرجل مع استهلاك أغلى العطور وأشهى أنواع البيتزا والهمبورغر الأمريكي. كلُّ ذلك يسوَّق إعلاميًّاً على مدار الساعة في إطار من المرح والسعادة، حيث تنقل إلى المشاهد الكوني رسائل التوافق بين قيمتي الخصوصيَّة الثقافيَّة والكونيَّة في مدلولها الاستهلاكي والبرغماتي وحسب.

يتشبَّع إسلام زمن العولمة أو الإسلام البديل عن النموذج التقليدي والجهادي والإخواني بالروح الرأسماليَّة ولا يجد حرجاً في ذلك. تتشكَّل الروح الرأسماليَّة من قيم الفردنة والنجاعة ورفض الموروث ومؤسَّسات الدعوة والإفتاء. وفضلاً عن ذلك يعتبر دعاة إسلام السوق أنَّ نكسة الأمَّة العربية الإسلاميَّة تعود إلى تفشّي وضعيَّة الخمول والدوغمائية القدريَّة والدروشة والانغلاق الهووي.

24- Ibid. p.10-11.

25- Ibid. p.56

26- Ibid. p.59-60.

يتمثل الحلُّ بالنسبة إلى الدعاة الجدد في تقليد النموذج البروتستنتي كما تناوله ماكس فيبر[27]. يقدّس البروتستانت والطهريون Les puritains في الولايات المتحدة العمل بوصفه أمراً إلهياً لا يقل أهميَّة عن طقوس العبادة. يجد هذا النموذج صداه ونجاحاته في بلدان شرق-جنوب آسيا (أندونسيا وماليزيا) وكذلك تركيا. استطاعت النخب القياديَّة في البلدان المذكورة أن تحوّل وجهات اهتمام شعوبها من السياسي والعقائدي إلى الإتيقي-النفعي والفرداني. وقد مكَّنها هذا من قدرة تنافسيَّة عالميَّة، لا سيَّما بعد تخليها عن وصاية الدولة-الأبويَّة. يقول هايني: «يدافع دعاة إسلام اقتصاد السوق عن رؤية أمريكيَّة محافظة، وعن حريَّة لا تقوم على حق الاختلاف، بل على مجاوزة وصاية الدولة»[28].

أضحت السوق الرأسماليَّة هي الفضاء الجديد لإثبات **الذات الدينيَّة الفاعلة والحرَّة**. لكنْ في المقابل هناك تخلٍ عن دور الدولة الضامنة والراعية للحريات والشروع في استبدالها بالقطاع الخاص من جهة وبالجماعات والجمعيات الدينيَّة العابرة للدول من جهة أخرى. وبذلك أصبحت مصالح المواطنين وحرياتهم مرتهنة بهذين الهيكلين.

وبهذا يتحقق التقاطع المنشود بين قيم الأسلمة وقيم «الغربنة»، بشكل جعل الفرد أكثر فاعليَّة وتحرُّراً في فضاء المعاملات الماديَّة. وبقدر ما يكون كذلك بقدر ما ينأى عن الشأن السياسي ويتوافق بالتالي مع منطق العولمة. يقول هايني: «يتبع إسلام اقتصاد السوق استراتيجيَّة فكّ العزلة عن ما هو ديني بإعادة غرسه في فضاء المعاملات الكونيَّة اللا-دينيَّة»[29].

4- الإسلاموفوبيا: أيّ مخرج؟

نحتاج اليوم إلى خطاب جديد نتوجَّه به إلى الغرب حتى نبرّئ أنفسنا من ركام التشوُّهات التي أصابت الشخصيَّة العربيَّة-الإسلاميَّة في مقتل. فالتراث لم ينصفنا، بل أنصف التأويل الدوغمائي للإسلام وأطلق عنانه عبر التاريخ ليشكّلنا على هواه، ولا الزمن الحاضر ينصفنا أيضاً، إذ فشلت القوى الجديدة من دولة الاستقلال وحركات التحرُّر الوطني والنخب المثقفة المتعلمة في مدارس الغرب وجامعاته، من فرز هذا التراث وتصفية حسابنا معه، والنتيجة هي استمرار وضعيَّة التذبذب بين الانشداد إلى ماضٍ لا يريد أن يمضي، والرغبة في التحرُّر منه نحو كونيَّة يحرسها الغرب ويصبغها بلونه وسياساته.

27- Max Weber, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme, Paris, Pocket, collection, Agora, 1904-1905, p.191.

28- Haenni Patrick, L'islam de marché: l'autre révolution conservatrice, op.cit. p.95.

29- Ibid., p.43.

أمام وضعيَّة الانسداد هذه، لا بُدَّ من التحرُّك من جديد باتجاه تنشيط حوار كوني بين الأديان[30] من أجل القطع مع الأحكام النمطيَّة الجاهزة. ويشترط هذا الحوار أولاً التخلي عن كلّ الأحكام المسبقة عن الإسلام كما روَّجتها الدراسات الاستشراقيَّة وحركات التبشير والاستعمار، والقطع مع العقليَّة التراثيَّة والصليبيَّة[31].

يروم حوار الأديان السماويَّة إلى إبراز نقاط الالتقاء التي من شأنها أن تضع حداً للأحكام المسبقة المثيرة للفوبيا والكراهية بين الشعوب[32]. يجب التأكيد على أنَّ الأديان توحّد الإنسانيَّة مهما اختلفت ألوانها وأعراقها ولغاتها وتقاليدها...، وأنَّ ما يفرّق الإنسانيَّة بالفعل هو الفتن والفقر والتهميش الاقتصادي والسياسي والاحتلال العسكري، وليس العقائد مهما بلغت من قوة تأثير.

يتعين على الجميع السعي إلى تكريس شعار «حوار الحضارات» بدل الصراع العدمي والتدميري الراهن الموسوم بالصراع الداروينى للحضارات. لكنَّ الحوار الكوني يشترط تساوي أطراف الحوار في الأهميَّة والحضور. وبعبارة أخرى علينا أن نتخلى عمَّا يُسمَّى حوار المركز والأطراف أو حوار الشمال والجنوب أو حوار الشرق والغرب...، فمثل هذه التقسيمات الثنائيَّة تخفي تفاضلاً سلبياً بين الطرف الأول والطرف الثاني...، وعليه فطالما تظلّ التمييزات قائمة على خلفيات قوميَّة أو عرقيَّة أو دينيَّة أو حضاريَّة... فأنّى لحوار الحضارات أن يكون؟ وكيف سيكون أصلاً بين أطراف تدخل في حوار شكلي وهي مشحونة بأحكام مسبقة وبميراث عدائي مستحكم لم تحدث معه القطيعة المنتظرة؟

لا بُدَّ من إجراء محاسبات حضاريَّة عميقة وتصفية الإرث الداخلي، وخاصَّة ما يتعلق بأحكامنا المسبقة تجاه الأديان الأخرى، فلا نُرغم أحداً على اتباع ملتنا باعتبارها الأصح والأفضل. ولا يغيب عن أذهاننا أنَّ السبب الرئيس لصراع الأديان هو الاعتقادات النرجسيَّة التي رسَّخها في أفئدة العامَّة «حماة المقدَّس» أو المتكلمون باسم السماء. نحتاج إذن إلى الانفتاح على كلّ العقائد والنهل منها ونزع الهالة القدسيَّة المحيطة

30- منذ ثمانينات القرن الماضي انتظمت لقاءات حوار بين الأديان السماويَّة الثلاثة، لكنَّها كانت متقطعة وغير منتظمة، ولم تؤثر في السياسات العامة. نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعضها:

- اللقاء الإسلامي المسيحي في الأردن سنة 1982، بدعوة من المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس، وتمَّت خلاله دراسة أوضاع المقدَّسات الإسلاميَّة والمسيحيَّة في الأراضي الفلسطينيَّة المحتلة.

- مؤتمر الحوار بين الأديان سنة 1986 بتشيكوسلوفاكيا بدعوة من مؤتمر السلام العالمي للعمل على نشر المحبة والإخاء بين البشر.

- المؤتمر الإسلامي اليهودي الأول ببلجيكا سنة 2005 تحت رعاية الملك محمد السادس والملك ألبير الأول، لنبذ العنف والكراهية وترسيخ ثقافة السلام والتعايش.

- "لقاء الأديان: من أجل حوار إسلامي- مسيحي متجدد"، الرباط 3-2 ماي 2014

31- ينظر الاستشراق إلى "التعاليم المسيحيَّة بوصفها أرفع من الإسلام الذي لا يعدو أن يكون في نظرها سوى زندقة". هانس كوكلر، تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين: الأسباب والحلول، م.م، ص 140

32- التشابه السعيد بين الإسلام والمسيحيَّة في التصورات الميتافيزيقيَّة (التوحيد-البعث-الحساب)، وفي الكونيَّة من شأنه أن يذيب كل الضغائن بين أتباع الديانتين، يكفي أن تبادر المؤسستان إلى فتح حوار تصالحي يقوم على التسامح والعفو ويؤسس لسرديَّة جديدة بين الديانتين الإبراهيميّتين(بتصرف) انظر: هانس كوكلر، تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين: الأسباب والحلول، م.م، ص ص 138-139

بها، كما نحتاج إلى الاطلاع على كلّ الكتب المقدَّسة وإعادة توطينها داخل الزمن البشري من خلال تحيين القراءات والتأويلات المتكلسة.

الخاتمــة

لم تكن ظاهرة الإسلاموفوبيا سوى أداة وذريعة وإيديولوجيا، تستخدمها القوى المعادية للإسلام كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك. فهي حينئذ شُبهة غريبة عن الإسلام الوسطي والمعتدل، ويتوجب علينا درأها بكلّ السبل المتاحة، وخاصَّة إعلان البراءة من أولئك الذين يرسلون للعالم رسائل انتقاميَّة ودمويَّة باسم الإسلام مطلقاً، فيلتقطها أعداء الداخل والخارج ويستثمرونها لتأجيج المزيد من الصراعات الطائفيَّة والدينيَّة وتمزيق وحدة الأمَّة، بما يحقّق في النهاية أجندات القوى الصليبيَّة الجديدة.

مسرد المراجع

- أمين، سمير، **الرأسماليَّة المتهالكة**، ترجمة: د. سناء شرف الدين ود. سناء أبو شقرا، بيروت، دار الفارابي، 2003
- تشومسكي، نعوم، النظام العالمي القديم والجديد. ترجمة: د. عاطف معتمد عبد الحميد، شركة نهضة مصر، 2007
- سعيد، إدوارد، **الاستشراق: المعرفة/السلطة/الإنشاء**، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربيَّة، 2001، ط 5
- دريفوس، روبرت، **لعبة الشيطان: دور الولايات المتحدة في نشأة التطرُّف الديني**، ترجمة، أشرف رفيق، مركز دراسات الإسلام والغرب، 2010
- راي تكيه ونيكولاس غفوسديف، **نشوء الإسلام السياسي الراديكالي وانهياره**، ترجمة حسان بستاني، بيروت، دار الساقي، 2005
- روا، أوليفيه، **عولمة الإسلام**، ترجمة لارا معلوف، بيروت، دار الساقي، 2003
- غارودي، روجيه، **الأصوليَّات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها**، تعريب، د. خليل أحمد خليل، باريس، 2000
- فندلي، بول، **لا سكوت بعد اليوم: مواجهة الصور المزيفة عن الإسلام في أمريكا**، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع، والنشر، ط5، 2010
- فوكوياما، فرانسيس، **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، مركز الإنماء القومي، بيروت 1993
- كوكلر، هانس، **تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين: الأسباب والحلول**، ترجمة حميد لشهب، بيروت، دار جداول، 2013
- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فليكس فارس، بيروت، دار القلم، (دون تاريخ).

- Barber, Benjamin, **Djihad versus Mc World,** Desclée de Brouwer, 1996
- Hegel, GWF, **Leçons sur la philosophie de l'histoire**, Paris, Vrin
- Haenni, Patrick, **L'islam de marché: l'autre révolution conservatrice**, Paris, Seuil, 2005
- Sen, Amartya**, Identité et Violence,** Traduit de l'anglais par Sylvie Kleiman-Lafon, Paris, Editions Odile Jacob, 2007
- Taguieff, Pierre–André **La république enlisée. Pluralisme, «communautarisme» et citoyenneté**, Paris, Éditions des Syrtres, janvier 2005
- Touraine, Alain, **Pourrons-nous vivre ensemble** ? Fayard, 1997
- Liogier, Raphael, **Le mythe de l'islamisation: Essai sur une obsession collective**, Paris, Seuil, 2012
- Weber, Max, **L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme**, Paris, Pocket, collection, Agora, 1904-1905

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017